رواية الشقيقتين

للاب هنري لامنس اليسوعي

فاقلعت السفينة في مساء ذلك النهار وتمّ السفر على غاية ما يرام من موافقة الرياح وهدوّ البحر ووصلت اسرة القنصل ب. الى ڤينّة في اواخر تشرين الثاني

١٢

وكان بقرب العاصمة في ضاحية هِيتْسِنغ (Hietsing) على مقربة من حديقة الصيد الامبراطورية ومن الطريق المؤدية الى مزار «ماريا برون» الشهير جادّة قصر على جانبيها صفّان من شجر البلّوط القديم وفي آخرها بقعة من الخضرة يظهر وراءها قصر جميل ابيض اللون يتراءى رسمهُ منعكساً في بحرة يتراوح ماؤها بفعل نفحات النسيم. وكان حول البحرة اشجارٌ كبيرة هائلة تمتدُّ تحتها ووراءها من كل الجهات حقول واسعة قائمة فيها بيوت صغيرة حمراء. ومنازل للاصطبلات معتدلة الحال منتصبة في وسط الخضرة. وكانت شمس تشرين الثاني مكفهرّة ترسل اشعّتها الذهبية بين اغصان الاشجار التي كان باقياً عليها شيءٌ من الاوراق المصفرّة جمدتها الريح الشمالية

في هذا القصر الذي كان في سابق العهد منزلًا لاجداده نزل شرل دي لينس وهو في حالة يُرثى لها فكنت تراهُ طُلبَ نهارهِ راقدًا على مقعد في غرفته وهو ممتقع اللون واهن القوّة تغيّرت بهجتهُ وتنكّرت بشاشتهُ وخمد نورهُ وذهب بهاؤهُ حتى اصبح لا يعرفهُ مَن كان قد اعتاد النظر الى ما كان عليهِ من الزُهرة اللامعة والنضارة الرائقة

وبينما كان نُطُس الاطباء يبذلون ما في وسع العلم لاصلاح الاختلال الذي طرأ على عقل البارون الشمس والدا سوسنّة مساعدة جمعية من الراهبات الزاهدات اللواتي كان لهنَّ في ڤينة شهرة طائرة باعمال الرحمة. وكان من جملة اعمالهنَّ المبرورة ومساعيهنَّ المشكورة الذهاب الى منازل المرضى للقيام عليهم اثناء المرض. فاجابت رئيسة الراهبات هذا الطلب بمحبة وألّا لم يكن لديها اذ ذاك لمثل هذه الخدمة الشريفة سوى راهبة واحدة امرتها ان تذهب للقيام على ذلك البارون المنكود الطالع وبذل الاعتناء به

وكانت تلك الراهبة صبيّة اسمها اغنس قد مرّت عليها منذ عهد قريب السنة المسماة

بسنة الابتداء في عُرف الرهبانية. وكانت تلك الراهبة في زهاء العشرين من عمرها بيد ان الناظر اليها كان يخال لهُ انَّها في نحو الثلاثين على الاقلّ وذلك لما اصابها من الهموم الباطنة والمشاغل العقلية والمتاعب الجسدية فضلًا عمَّا قاستهُ في سبيل دعوتها الرهبانية الجليلة تلك الدعوة التي لا تليق الَّا بمن كانت في نفسهِ شهامة الابطال. اجل ان تلك المتاعب والهموم كانت لعبت بصحة الراهبة المتقدِّم ذكرها فذهبت بجمالها وغيَّرت منظرها البهيج وازالت من ملامحها تلك النضارة السنية والرونق الطريّ الخاصّ ببعض الأُسرات الحسية

ولمَّا مثلتْ هذه الراهبة لاوَّل مرَّة بحضرة القنصل ب. وزوجتهِ اهتزَّت جوارحها وارتجفت فرائصها واختلجت اعضاؤها وباقلّ من لمح البصر اندفع الدم من قلبها المضطرب فلوَّن خدَّيها المجيفين المستعمين بحمرة وردية. على انَّ الاب والام الموما اليهما لم يكونا ليلحظا ما طرأ على تلك الراهبة من الاضطراب والتأثر السريعين وذلك لان الحزن كان شديد الوطأة عليهما لا يبيان شيئًا ولا يدركان امرًا

وكانت الراهبة الفتية تقوم بواجبات مُهمَّتها باخلاص لا يماثلهُ في التناهي الَّا تقواها الحسية التي كانت تستطرق الى النفوس المحيطة بها كالشمس تنفذ اشعتها في الاجسام الشفَّافة. وفضلًا عن ذلك فان حركاتها وسكناتها كانت تشير الى كرامة اصلها وطيب عنصرها. وكانت كأنَّ الديانة قد تجسَّدت فيها بصورة حيَّة بل كأنَّها الرحمة قد تقمَّصت بها ثوبًا قشيبًا. ولذلك فان تلك الراهبة استهوت النفوس بدون ان تشعر بالامر واستلفتت الانظار اليها استلفاتًا

وكانت السيدة تُسرّ خاصَّةً بمحادثتها ومكالمتها وتشعر على اثر كل محادثة بابتهاج داخليّ يخامر نفسها بل كثيرًا ما كان صوت تلك الراهبة غير المعروفة منها يخترق اعماق احشائها وتهتزّ منهُ جوارحها دون ان تدرك لذلك سببًا. وحاولت مرارًا عديدة ان تستنطقها عن امر بلادها واهلها ولكنها كلما تأتي بمثل تلك المفاتحات كانت الراهبة اللبقة تحوّل المكالمة الى موضوع آخر ولذلك عمدت السيدة ب. الى الاقلاع عن تلك المخاطبة لئلا تحزنها محترمةً بذلك رصانتها وتحفُّظها. بيد انها ادركت رغمًا عن ذلك ان والدي الراهبة ما برحا في قيد الحياة وانها غير مولودة في بلاد التمسة. ومما يُذكر انَّ الراهبة كان يبدو على محيَّاها سيماء الابتهاج عند ما كانت تجتمع بسوسنَّة بل كانت تبذل

جهدها لكي لا تقابلها على انفراد بل ان سوسنة لحظت جملة مرّات ان الراهبة كانت تحوّل عنها نظرها لتكفكف دمعة تندفع من عينها فوراً

وفي احد الايام ورد بريد سورية وفيه للقنصل ب. مكاتيب ورسائل متعدّدة فأخذ يقرأها وشرع اهل البيت يتحدّثون بالاخبار الواردة من بيروت ولبنان. وكانت الراهبة اغنس في تلك الفرصة مهتمّة شديد الاهتمام بتحضير دواء للبارون على انها لمّا سمعت كلمة بيروت التفتت الى القوم بالرغم عنها ولم تتمالك ان ابدت حركة دلّت على اهتمامها ورغبتها في الاستجلاء والاستطلاع لكنّها انتبهت حالاً لامرها ورجعت عن تلك الحركة الفارطة منها ذهلاً. بيد ان زوجة القنصل لحظت منها ذلك فقالت لها مستفهمةً: «يظهر لي ان حوادث سورية تهمّك يا حضرة الاخت»

فاجابت الراهبة بقولها:

«صدقتِ ايتها السيدة الفاضلة انني كنتُ دائماً اغبط سكّان تلك البلاد الجميلة. أوَ ليست تلك البلاد وطن الخلّص؟ او ليس قد تمّت فيها اسرار ديانتنا المقدّسة المتناهية في تأثيرها بالنفوس؟ اجل انني في صباح هذا اليوم نفسه بينا كنتُ اتلو فرضي القانوني اذ وقفتُ على وصفٍ جميل عن لبنان وعن عظمة الارز القائم على رؤوسه... وفضلاً عن ذلك ان الهواء في تلك الربوع لطيف مُنعش نقيٌّ صافٍ ليس فيه ما تراهُ هنا من الكدورة والغيوم المتلبّدة والمطر الرذاذ المنهمل عندنا منذ اسبوع...»

ثم انقطعت الى موضوع آخر فقالت ملتفتةً الى المريض بعين الشفقة: «لحِقني على البارون فانّهُ منذ جملة ايّام لم يستطع الذهاب لاستنشاق الهواء النقي». وقد اجتهدت ان تمزج بكلامها هذا السذاجة الفطريّة بلهجة الانعطاف الخالص والصداقة المجرّدة. وهي اللهجة التي عُرفت بها طائفة الراهبات حتى انّ زوجة القنصل لم يخطر لها اذ ذاك انّ في الامر سرًّا. على انها بعد خروج الراهبة من الغرفة اخذت تحادث زوجها بمحامد الراهبة اغنس مكرّرة ذكر سجاياها فوافقها على ذلك القنصل وسوسنة كل الموافقة بحيث ان العائلة كلها فُتنت بجمال تلك الفضيلة اللامعة بالوداعة والاخلاص والحشمة والاعتدال

١٣

ان العلّة التي كان شرل دي لينس مصابًا بها كانت في ابتداء اقامته في فينة قد تمكّنت منهُ ايّما تمكين حتى غادرتهُ هزيلاً نحيلاً بل اتّصلت به الحال الى درجة لم يكن

ليقبل معها تناول الطعام الّا من يد الراهبة القائمة بخدمته في مرضه. وكانت ثوب السوداء تتعاقب عليه بكثرة فتثور فيه ثائرة الغضب واذ ذاك عند ما كان يعجز الرجال الاقوياء عن إخماد ثورة حنقه كانت تُقبل عليه تلك الراهبة الفاضلة فتتمكّن بكلمة واحدة لطيفة من تسكين جأشه المضطرب وتخميد نبضه النابض. وعليه فانّها كانت تقضي شطرًا كبيرًا من الليل لدى فراشه. بل انّها لم تكن لتلتمس لنفسها الراحة الّا زهاء ساعتين او ثلاث ساعات بل كثيرًا ما تستيقظ اثناء تلك المدّة على صراخ واستدعاء البارون الذي لم يكن ليرضى بان تفارقهُ دقيقةً

ولمّا كان الهواء نقيًّا والجوّ صافيًا كان يذهب البارون دي لينس المنكود الحظّ الى التماس النزهة في حديقة « شُنبرون » الجميلة التي كانت مكارم الامبراطور تحت لاهالي ثينّة ان يرتاحوا النفس فيها. وكان يذهب الى تلك الحديقة راكبًا عربة تحفُّ به كلٌّ من سوسنة والراهبة اللتين كانتا متناظرتين في اخلاص الخدمة له والعناية به كانهما له ملاكان حارسان وكان وجه البارون المتقع الكاسف يرجب الخيفة من ان يصبح داؤهُ عُضالًا عُقامًا لا دواء لهُ. وكان يتبادر للذهن لدى مشاهدة عناية الصبيّة سوسنة والراهبة اغنس به ان نفسيهما اكريمتين متّحدتان بباطنة واحدة من النزاهة والاخلاص

وقد حدث ان البارون ورفيقاهُ الراهبة وسوسنة ذهبوا مساء يومًا ما في التماس النزهة المحكي عنها فبقيت السيدة ب. وحدها في البيت فتمكّنت بانفراد عن سوسنة من اطلاق العنان لعاطفة احزانها فجلست في غرفة البارون وشرعت تبكي سرًّا

وهناك مرّت بخاطرها ذكر حوادث السنتين المنقضيتين فتذكرت وصول البارون مصيفها في لبنان ثم تبادر لذهنها كيف انها شهدت ذلك الانعطاف القوي الذي اجتذب قلب البارون الى نفس ابنتها وردة بقوّة غالبة وكيف انها هي ذاتها حسبت نفسها سعيدة بتعزيز الانعطاف في فؤاد ذلك الشاب الشريف اللامع كالشهاب. ثم اخذت تهذُّ في تلك الاماني الحلوة العذبة الشهيّة التي كانت هي وزوجها يعقدان الآمال على تحقيقها في مستقبل الحين. تلك الآمال التي كانا يعلّقان عليها سعادة بنتهما العزيزة باتحادها برباط الزيجة مع اكرم رجل. تلك الآمال التي كانت ترهما انّهما لدى بلوغهما في الشيخوخة سيلاقيان شرل دي لينس سندًا قويًّا لضعفهما ودعيّة معزّزة لوهنهما. . . .

ولدى مرور هذه التذكرات ببال زوجة المتصل كانت تبتسم ابتساماً يمرُّ بين دموعها كالسهم اللامع ينشبُ في الظلام الحالك

ولكن على اثر تلك الصور البهجة التي كانت ترسمها المخيلة قامت التذكرات المحزنة السوداء . اجل انها ذكرت حفلة الخطبة الراقصة ثم الحادثة الفاجعة التي جرت اثناء رجوعهم من اثينة وهكذا كانت التصوُّرات الاولى لديها كالحلم الجميل والتذكرات السوداء التي عقبتها كالحقيقة المحزنة تتجلى للنائم لدى استيقاظهِ من الرقاد

نهضت تلك الوالدة المسكينة حيناً في هذه الهواجس وهي تشعر بآلام مبرِّحة بانفرادها في تلك الغرفة ثم قامت بعزم وخرَّت ساجدة على المصلَّى الذي كانت الراهبة اغنس تقضي عليهِ نهف لياليها وقد شعرت من نفسها بحاجةٍ ماسَّة الى الصلوة

ولما كانت حالتها تضطرها ان تخفي في قلبها الهموم والاحزان التي كانت تتأكلها فاصبح من اللوازم الضروريَّة لها ان تبيح بامرها لله تعالى اله الرحمة ومهبط التعزية الحقيقية . وكان على المركع الذي سجدت عليهِ كتاب صلوات وهو نفس الكتاب الذي كانت الراهبة تستعملهُ مصليةً ففتحتهُ بلا انتباه رجاء ان تجد فيهِ صلوة تناسب حالتها . ولكن حالما وقع بصرها على الصفحة الاولى استثبتت ان اسماً كان مكتوباً عليها وان ذلك الاسم كانت مُحيت كتابتهُ باعتناء فلم يبقَ منهُ الَّا الحرف الأوَّل وهو « الواو » مرسومة بالخط الثلُث . فوقع الكتاب بغتةً من يديها المرتجفتين ولم يبقَ لها من استطاعة الى الصلوة بل ثار ثائرها ونبض نابضها واضطرب بالها وشرعت تقلِّب اوراق الكتاب اشكالاً والوانًا طمعاً بان تبدو لها دلائل جديدة . على انَّ مسماها كان باطلاً فان فحصها المدقِّق لم يُجدِ تلك الوالدة التعيسة نفعاً . فاضحى ذلك الحرف حرف (و) سبباً لانشغال بالها وباباً للحذر والتخمين .

وبناء على ذلك اخذت الافتراضات الغريبة تتعاقب على ذهنها فخطر لها ان الراهبة اغنس ربَّما كانت بنتها « وردة »

(ستاتي البقية)

شذرات

مستشيات وسفن مبرَّدة

جاء في المجلات الاوربية الاخيرة خبر يُسرُّ لهُ كل من يقطن في البلاد الحارَّة . وهو